الصعود

WWW.ATTAWEEL.COM

أسعد الديب محمد

إصالة وعمق التحليل الاجتماعي عند الجاحظ

١٦٠ ـ ٢٥٥ هـ

بقلم الدكتور

معن خليل عمر

جامعة محمد بن عبدالله
كلية الآداب والعلوم الانسانية
فاس ـ المغرب

قدم الجاحظ نصوصا نظرية مصورة الواقع الاجتماعي للمجتمع العربي في العصر العباسي لا سيما في المأمون الذي اتصف بالعصر الذهبي للحضارة العربية التي انصهرت في بوتقتها جميع الحضارات العربية ووسمتها بطابع فريد وخاص ، مستخدما عدة مفاتيح تحليلية ؛ كالحاجة الاجتماعية ، والاصطراع والتعاون في تفسير طبيعة المجتمع العربي ؛ القيم الاجتماعية والمهنة والقومية لتصوير فئات المجتمع ؛ والقيم الدينية في المساواة العنصرية في تفسير وتوضيح وجود هذه الاحداث والوقائع الاجتماعية .

كما استخدم التحليل التشخيصي في تفسير الاحداث الاجتماعية ؛ اي انه درس الاحداث بشكل دقيق ؛ موضحا سبب وجودها ؛ رابطا ذلك بالبيئة الاجتماعية العربية ، دون تركها سائبة بلا تعليل او تفسير ، الشيء الذي شكل ارهاصا اوليا في التحليل الاجتماعي ؛ لم يستخدمه احد من بعده ويسخره في دراسة الواقع الاجتماعي العربي .

ان النظرية التحليلية للمجتمع الانساني تجسدت في قوله ؛ ان حاجة بعض الناس الى بعض ؛ صفة لازمة في طبائعهم ؛ وخلقة في جواهرهم ؛ وثابتة لا تزايلهم ؛ ومحيطة بجماعتهم ؛ ومشتملة على ادناهم واقصاهم ؛ وحاجتهم الى ما غاب عنهم مما يعيشهم ويحييهم ، ويمسك بارماقهم ، ويصلح بالهم ؛ ويجمع شملهم والى التعاون في درك ذلك ؛ والتوازر عليه كحاجتهم الى التعاون على معرفة ما يضرهم ؛ والتوازر على ما يحتاجون من الارتفاق بامورهم التي لم تغب عنهم ، فحاجة الغائب موصولة بحاجة الشاهد ؛ لاحتياج الادنى الى معرفة الاقصى ؛ واحتياج الاقصى الى معرفة الادنى ؛ معان متضمنة ، واسباب متصلة ؛ وحبال منعقدة[1] .

استخدم الجاحظ في هذا التحديد مفهوم الحاجة الى الاجتماع التي وصفها بانها متأصلة في طباع الناس واخلاقهم التي تقدم وظيفة المحافظة على وجودهم . ولما كان المجتمع العربي قائما على رابطة الارحام والانساب ؛ فقد ابرز دور الحاجة واهميتها في تضامنهم وتكاتفهم وكيف ادت الى اشباع رغبتهم في الاجتماع والتعاون والتعاضد الاجتماعي .

ومن الحري ان نشير في هذا المقام الى وصفه لطبيعة المجتمع العربي المتمثلة في الاصطراع والتعاون ؛ حيث ارجع صفة الاصطراع بين الافراد الى سبب (الحسد) . وميز بين نوعين من الحسد ؛ هو حسد الجاهل وحسد العارف ؛ وميز ايضا ؛ بين الحاسد والعدو ؛ والحسد كما نعلم ظاهرة اجتماعية تفرزها التمايزات الاجتماعية المتمثلة في الادوار والمراكز الاجتماعية التي تزيد من درجة الاصطراع بين الافراد من اجل الوصول الى مراكز اعلى وثروة اكثر ، ولما كانت حياة المجتمع العربي في العصر العباسي وما

(١) الحيوان ، الجاحظ الجزء الاول تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده بمصر ١٩٥٠ ص ٤٢ .

WWW.ATTAWEEL.COM

تزال قائمة على العوامل المعنوية (قيم ؛ اعراف ، دين) اكثر من العوامل المادية اثروة ؛ ملكية ؛ دخل ؛ فقد استخدم الجاحظ مفهوما اجتماعيا صرفا في تشخيص ظاهرة الاصطراع بين الافراد والفئات الاجتماعية لسيادتها ؛ ولم يستخدم كمية ونوعية الثروة والدخل مثلا . فقد قال : « العداوة لها عقل تسوس به نفسها فينجم قرنها ؛ وتبدي صفحتها في اوقات الهتر والا فانها كامنة تنتهز ازمنة الفرص . والحسد مسلوب المعقول بازاء الضمير في كل حين وزمان ووقت ؛ ومن لؤم الحسد انه موكل بالادنى فالادنى والاخص فالاخص. والعداوة وان كانت تقبح الحسن فهي دون الحسد ، لان العدو المباين قد يحول وليا منافقا ؛ كما يحول المولى المنافق عدوا مباينا . والحاسد لا يزول عن طريقته الا بزوال المحسود عليه عنده والعداوة تحدث لعلة ، فهي لا تزول الا بزوالها[٢] .

والعداوة تخلق وتمل ؛ والحسد غض جديد ، خزم او اعطى ، لا يبيد . فكل حاسد عدو ، وليس كل عدو بحاسد[٣] . والحسد اخو الكذب ؛ يجريان في مضمار واحد ؛ فهما اليفان لا يفترقان؛وضجيعان لا ينبايناان[٤] وحسد الجاهل اهون شوكة واذل صحنا ؛ من حسد العارف الفطن ، لان الحاسد الجاهل يبتدر الى الطعن على الكتاب في اول وهلة يقرأ عليه ؛ قبل استتمام قراءته ورقة واحدة ؛ ثم لا يرضى بأيسر الطعن واخفه حتى يبلغ منه الى اشده واغلظه ، وقبل ان يقف على فصوله وحدوده[٥] .

يتجلى هنا استخدام الجاحظ التحليل التشخيصي الذي وضح فيه مفهوم الحسد لما له من اهمية كبيرة في حياة مجتمع قائم على الارحام والانساب والروابط القبلية ؛ وارجع العداوة (التي هي احد اوجه الاصطراع) بين افراد هذا المجتمع الى سبب الحسد ؛ واعتبره مصدرا للشغب والفتنة والاصطراع في حياة المجتمع العربي وارتباطه فيزا ؛ بحيث اذا زال الحسد زالت العداوة وليس العكس وهذه الظاهرة هي احدى جوانب الطبيعة البشرية .

كذلك ميز بين نوعين من الحسد ، الاول الشرس المذل الذي يمارسه العارف الفطن الذي يستخدم معرفته في توجيه شروره نحو الاخرين ؛ والثاني الخفيف الذي يمارسه الجاهل لبساطة وسذاجة تفكيره في توجه شروره نحو الاخرين .

نلاحظ ايضا في هذا المقام ان الاصطراع المبني على الحسد لا يؤدي الى تغيير المجتمع وتبديله ، بل يؤدي الى اضطرابه وقلقله وزيادة في الفتن ؛ بحيث يسبب فوضى اجتماعية ؛ لكنه اذا كان (الاصطراع) مبنيا على مصادر مادية او على عدم توزيع المكافات الاجتماعية بشكل متكافيء على المكانات الاجتماعية فان ذلك يكون تغييرا في بناء المجتمع العربي .

اضافة الى ما تقدم ، لم يغفل الجاحظ صفة التعاون في المجتمع العربي المقامة على العلائق الدموية والرحمية بين القبائل العربية ؛ فقد ابرز طابعها البيئوي ؛ عندما قال : « ان التوازر والتسالم في القرابات وفي بني الاعمام والعشائر ؛ افشى واعم من البغضاء . ولخوف التخاذل ولحب التناصر ؛ والحاجة الى التعاون ــ انضم بعض القبائل في البوادي الى بعض ؛ ينزلون معا ويظعنون معا . ومن فارق اصحابه اقل ؛ ونصر ابن عمه اكثر . ومن اغتبط بنعمته وتمنى بقاءها والزيادة فيها اكثر ممن بغاها الغوائل ؛ وطلب انقطاعها وزوالها[٦] .

وارتكانا الى هذا النص ، نجد ان الجاحظ كان (بنيويا وظيفيا) بالمعنى الاجتماعي الحديث في تأكيده على صفة التعاون ؛ وحاجة المجتمع العربي لها وضرورة اتحاد وائتلاف القبائل العربية من اجل المحافظة على بنيان المجتمع وازالة العداوة والتناحر فيما بينهم .

اما الصورة الاخرى التي قدمها الجاحظ ، فهي طبيعة الانسان ، التي كانت رائعة في وصفها ، ودقيقة في معانيها ، عكست بيئتها الطبيعية في رموزها واشارتها ، فقد وصفها بانها ، تملل الحواس والمحسوسات الخمس وتاكل اللحم والحب ، وتجمع بين ما تقتاته البهيمة والسبع ؛ ووجدوا فيه مسولة الجمل ووثوب الاسد ، وغدر الذئب ، وروغان الثعلب ، وجبن الصفرد ، وجمع الذرة ، وصنعة السرقة وجود الديك ، والف الكلب ، واهتداء الحمام . وربما وجدوا فيه مما في البهائم والسباع خلقين او ثلاثة ، ويحكي كل صوت بفمه ، وان اعضاءه مقسومة على البروج الاثني عشر والنجوم السبعة ، وفيه الصفراء وهي من نتاج النار ، وفيه السوداء وهي من نتاج الارض ، وفيه الدم وهو من نتاج الهواء ، وفيه البلغم وهو من نتاج الماء . وعندها مبالغ الغضب والرضا ، والفطنة والغباوة والسلامة

---

(٢) رسائل الجاحظ ، الجاحظ الجزء الاول تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ١٩٦٤ ص ٢٤٥ .
(٣) المصدر السابق ، الجزء الاول ص : ٢٤٦ .
(٤) المصدر السابق ، الجزء الاول ص : ٢٤٧ .
(٥) المصدر السابق ، الجزء الاول ص ٢٥١ ـ ٢٥٢ .
(٦) المصدر السابق ، الجزء الاول ص : ٢٤ ـ ٢٥ .

والمكر والنصيحة والفش والهزل والبخل والجود والتواضع والكبر والانس والوحشة والجبن والشجاعة والحزم والاضاءة والخوف والرجاء وغيرها من الطبائع(٧) .

وفي ضوء هذا المعنى ؛ اوضح الجاحظ ان الانسان كائن بايولوجي واجتماعي يرث صفات جسمانية تميزه عن بقية الكائنات الحية ويتفاعل مع البيئة الاجتماعية مما يخلق عنده طبائع متنوعة ومتضاربة تبرز احدها على الاخرين بحكم تاثيرات البيئة التي تلعب دورا هاما في تطبيع وتنشئة الانسان لها . وهذه احدى جوانب تاثير البيئة العربية في خلق انسانها .

اضافة الى ما تقدم ، فانه لم يهمل تاثير العامل المناخي في تغيير طباع الافراد ؛ فقد قال « لا ننكر ان يفسد الهواء ناحية من النواحي فيفسد ماؤهم وتفسد تربتهم ؛ فيعمل ذلك في طباعهم على الايام ؛ كما عمل ذلك في طباع الزنج ، وطباع الصقالبة ، وطباع بلاد ياجوج وماجوج . وقد راينا العرب وكانوا اعرابا نزلوا خراسان ؛ كيف انسلخوا من جميع تلك المعاني(٨) .

نلاحظ على هذا النص انه ابرز تاثير البيئة المناخية على الانسان لتوضيح عملية تفاعل الانسان مع المناخ وكيفية سلوكه بشكل يعكس نوعه وطبيعته علاوة على ذلك ، فانه اوضح انفتاح الانسان وخضوعه للتاثيرات المناخية في توجيه سلوكه الاجتماعي وتكيفه لها .

والنقطة التي انتبه اليها الجاحظ في هذا المقام هي ان تاثيرات البيئة المناخية تاخذ وقتا طويلا في تطبيعهم ؛ وهذه الالتفاتة جديرة بالاهتمام في عملية التنشئة والتطبيع .

لم يكتف الجاحظ بوصف طبيعة المجتمع العربي وتحليله ، بل وصف الحيوانات التي تعيش معه والفها باعتبارها تمثل احد عناصر البيئة العربية التي يعيشها الانسان العربي ؛ وبنكس الوقت تمثل نوعين من الحاجات هما :

ا ـ حاجات وسيلية . . . اي

١ ـ وسائل المواصلات والاتصالات بين الافراد المجتمع .

٢ ـ الطاقة الغذائية .

٣ ـ مصدر الثروة المالية والاجتماعية .

٤ ـ مصادر القوة الحربية في القتال .

٥ ـ استخدامها في المناشط الرياضية .

ب ـ حاجات تعبيرية . . . اي

١ ـ استخدام الصفات الحيوانية للتعبير عن مواقف الافراد ... مثل .

لاقيت مطلا كنعاس الكلب
حمار يحمل اسفارا
اصدق من القطاة
اهدى من القطاة
صبره صبر الجمل
مكره مكر الثعلب

٢ ـ تسمية افراد المجتمع باسماء وصفات الحيوانات .

فقد قال : « كانت العرب تسمي ابناءها بكلب ؛ وحمار ، وقرد على التفاؤل بذلك . وكان الرجل اذا ولد له ذكر خرج يتعرض لزجر الطير والفال ؛ فان سمع انسانا يقول ذئبا او راى ذئبا يتأول فيه الفطنة والخب والمكر والكسب . وان كان حمارا تأول فيه طول العمر والوقاحة والقوة والجلد . وان كان كلبا تأول فيه الحراسة واليقظة وبعد الصوت ، والكسب وغير ذلك(٩) .

وكانت اسماء العرب تحمل ايضا اسماء بعض الحيوانات مثل غراب وفاخته وحمامه ويمامه وشاهين وعقاب وقطاة ودجاجة وعصفور وحجل(١٠)

٣ ـ تنظيم بعض اوقات مناشطهم حسب فعاليات الحيوانات . فقد كان الديك يمثل الاسطرلاب في حياة المجتمع العربي ؛ حيث وصفه الجاحظ بانه يعرف الليل وساعاته وارتفاق بني آدم بمعرفته وصوته يعرف آناء الليل وعدد الساعات ومقادير الاوقات ؛ ثم يقسط اصواته على ذلك تقسيطا موزونا لا يغادر منه شيئا ثم قد علمنا ان الليل اذا كان خمس عشرة ساعة انه يقسط اصواته المعروفة بالعدد عليها ، كما يقسطها والليل تسع ساعات ، ثم يصنع فيما بين ذلك من القسمة واعطاء الحصص على حساب ذلك(١١) .

٤ ـ تشبيه العلائق الحيوانية بالانسانية فقد شبه العرب علاقة الزوج بالزوجة وظاهرة السحاق

---

(٧) الحيوان ، الجزء الاول ص : ٢١٢ ـ ٢١٤ .
(٨) الحيوان الجزء الرابع ص : ٧٠ ـ ٧١ .
(٩) الحيوان الجزء الاول ص ٢٢٤ .
(١٠) الحيوان الجزء السابع ص ٥٣ .
(١١) الحيوان الجزء الثاني ص : ٢٤١ ـ ٢٤٢ .

واللواط والانحرافات الجنسية بينهم بعلاقة الحمام الجنسية[١٢] .

اضافة الى ذلك فقد لعب الحيوان دورا كبيرا في حياة المجتمع العربي في تلك الفترة الزمنية ، فقد كانت تهيج المشاعر الدينية والعصبية وتثير المناظرات الكلامية والادبية . فقد صور الجاحظ دور الديك في حياة العرب الى درجة ادت الى اثارة خصومة كبيرة بين النزعة العربية والمنازع الاخرى . فذبح الديك مثلا كان يسبب مشاكل بين من يقدس الديك ومن يبيح ذبحه . واهمية الكلب كانت ملحة في حراسة دورهم ومزارعهم وحيواناتهم ومساعدتهم في صيد الحيوانات .

جميع هذه العوامل التي طرحها الجاحظ استهدف فيها توضيح اهمية الحيوان وعلاقته بالانسان والمجتمع العربي التي دللت لنا طبيعة حياته آنذاك واهمية الكائنات غير البشرية فيه .

وفي مجال آخر ، ابرز الجاحظ انسانية المجتمع العربي بعدم تميزه العنصري والرسي بين العناصر والارساس ، فقد اوضح بان المجتمع العربي لم يحتقر الجنس الاسود ، بل كان ولا يزال يؤكد على المساواة العنصرية ومساهمتها في المناشط الاجتماعية العامة والخاصة . فقد وصف صفات القرد الاسود ومكانته المتساوية مع بقية المكانات الاجتماعية للاجناس الاخرى في المجتمع العربي ، واشاد بكثير من خصالهم الحميدة حيث قال : « الرجل منهم يخطب عند الملك بالزنج من لدن طلوع الشمس الى غروبها ، فلا يستعين بالتفاتة ولا بسكتة حتى يفرغ من كلامه . وليس في الارض امة في شدة الابدان وقوة الاسر اعم منها فيها . وان الرجل ليرفع الحجر الثقيل الذي تعجز عنه الجماعة من الاعراب وغيرهم . وهم شجعان اشداء الابدان اسخياء . وهذه هي خصال الشرف »[١٣] . ورد الجاحظ على بعض الناس الذين قالوا بان الزنوج صاروا اسخياء لضعف عقولهم ، ولقصر رؤياتهم ولجهلهم بالعواقب. بما يلي بئس ما اثنيتم على السخاء والاثرة ، وينبغي في هذا القياس ان يكون اوفر الناس عقلا واكثر الناس علما ابخل الناس بخلا واقلهم خيرا[١٤] .

ابرز الجاحظ هنا تكافيء الاجناس والارساس في المجتمع العربي وعدم استعلاء جنس او رس معين على الاخر .

---

(١٢) الحيوان الجزء الثالث ص ١٦٢ ـ ١٦٦ .
(١٣) رسائل الجاحظ الجزء الاول ص : ١٩٥ .
(١٤) المصدر السابق الجزء الاول ص ١٩٦ .

وما يلفت نظرنا في تحليل الجاحظ الاجتماعي تصنيفه لفئات المجتمع العربي ، والالتفاتة التي برع فيها اساسا في تصنيفه ، وهي قيمة الكرم والجود التي لعبت وما تزال تلعب دورا هاما في علائقهم ومراكزهم وادوارهم الاجتماعية ، فقسمهم الى فئة البخلاء وفئة الكرماء ، وتصنيفه هذا دفعه ليميز بين كرم العرب وضيافتهم وبخل الموالي وكتابه البخلاء مليء بالقصص والاحاديث حول بخل البخلاء ، نورد احداها وهي ليلى الناعطية فانها ما زالت ترفع قميصا لها وتلبسه حتى صار القميص الرقاع وذهب القميص الاول ورفت كساءها ولبسته حتى صارت لا تلبس الا الرفو وذهب جميع الكساء[١٥] .

اضافة الى ما تقدم ، استخدم ايضا عامل (المهنة) لتقسيم المجتمع العربي الى الفئات التالية:

فئة المتكلمون ... حيث قال فيهم وليس يكون المتكلم جامعا لاقطار الكلام متمكنا في الصناعة يصلح للرياسة ، حتى يكون الذي يحسن من كلام الدين في وزن الذي يحسن من كلام الفلسفة . والعالم عندنا هو الذي يجمعهما ، والمصيب هو الذي يجمع بين تحقيق التوحيد واعطاء الطبائع حقائقها من الاعمال[١٦] .

فئة الكتاب ... الذين وصفهم بانهم ذو « خلق حلوة » ، وشمائل معشوقة وتطرف اهل الفهم ، ووقار اهل العلم ، فان القيت عليهم الاخلاص وجدتهم كالزبد يذهب جفاء ، وكنيته الربيع يحرقها الهيف من الرياح ، لا يستندون من العلم الى وثيقة، ولا يدينون بحقيقة. اخفر الخلق لاماناتهم ، واشرهم بالثمن الخميس لعهودهم ، الويل لهم مما كتبت ايديهم وويل مما يكسبون »[١٧] .

فئة الاطباء ... الذين صنفهم الى المزيفين والجشعين والحقيقيون اصحاب الرسالة ، ففي المزيفون الاغبياء شهادته قاطعة مبرحة ، انها تقضي بقطع دابرهم لا سيما ان لصب بهم الغرور ، اما في ذوي الجشع فيقول ابو عثمان : انهم يهللون لانتشار المرض حتى تنفتح امامهم ابواب الرزق. فلو ارشدوا الى ما يحسم العلل لبارت سوقهم حتما . ومن هنا كان شرهم اكيدا[١٨] .

---

(١٥) البخلاء ، الجاحظ ، الطبعة الاولى بالطبعة الخيرية ١٣٢٥هـ ص ٤١ .
(١٦) الحيوان ، الجزء الثاني ص ١٣٤ .
(١٧) رسائل الجاحظ ، الجزء الثاني ص ١٩٩ .
(١٨) الجاحظ ، جميل جبر ، الطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٥٨ ـ ص : ٤٧ .

فئة المعلمون ... حيث صنفهم الى ضربين : منهم رجال ارتفعوا عن تعليم اولاد العامة الى تعليم اولاد الخاصة ؛ ومنهم رجال ارتفعوا عن تعليم اولاد الخاصة الى تعليم اولاد الملوك انفسهم المرشحين للخلافة[١٩] مع ذلك فلم تكن للمعلمين سمعة طيبة عند العرب على اوجه العموم قد يكون ذلك نتيجة رواسب ذلك العهد الذي كان فيه المعلمون عبيدا او يهودا او نتيجة سوء مسالك بعضهم وحقارة نفوسهم[٢٠] .

فئة المفسرون ... اي القصاصون الذين كانوا يكيفون الاحاديث حسب اهوائهم ومصالحهم فكانوا يؤولون القرآن الكريم ويشوهونها قصد تدعيم سلطانهم على العامة[٢١] .

فئة المترجمون ... الذين يؤدون ابدا ما قال الحكيم ، عن خصائص معانيه ؛ وحقائق مذاهبه ، ودقائق اختصاراته ؛ وخفيات حدوده ، ولا يقدر ان يوفيها حقوقها ، ويؤدي الامانة فيها ؛ ويقوم بما يلزم الوكيل ويجب على الجري ؛ وكيف يقدر على ادائها ، وتسليم معانيها ، والاخبار عنها على حقها وصدقها ، الا ان يكون في العلم بمعانيها ؛ واستعمال تصاريف الفاظها ؛ وتأويلات مخارجها»[٢٢] .

فئة البحريون ... الذين كانوا يمثلون الفئة النادرة التي تتجشم الاسفار البعيدة وتشاهد البلدان الغريبة وكثيرا ما عاد هؤلاء الى ديارهم مدهوشين بما راوه فلا يستطيعون التعبير عن دهشتهم الا باختلاق الاساطير[٢٣] .

وللجاحظ تصنيف ثالث لفئات المجتمع العربي وهو حسب مراكزهم الاجتماعية ، فقسمها الى صنفين هما فئة السادة الذي لم يكن شأنهم ان يردوا الناس الى اهوائهم ؛ والى الانسياق لهم بعنف السوق وبالحرب في القود . بل كانوا لا يؤثرون الترهيب على الترغيب والخشونة على التليين[٢٤] وفئة العامة التي وصفها بانها ليس في الارض عمل اكد لاهله من سياسة العوام[٢٥] .

(١٩) البيان والتبيين ، الجاحظ ، الجزء الاول تحقيق وشرح عبدالسلام هارون ، مكتبة الخانجي بمصر ، ١٩٦٠ ص ٢٥٠ .
(٢٠) الجاحظ ، جميل جبر ص : ٥٠ .
(٢١) الجاحظ جميل جبر ص ٤٨ .
(٢٢) الحيوان الجزء الاول ص ٧٥ ـ ٧٦ .
(٢٣) الجاحظ جميل جبر ص ٥٦ .
(٢٤) الحيوان الجزء الثاني ص ٩٤ ،
(٢٥) المصدر السابق ص ٩٤ .

اما التصنيف الرابع ، فقد صنفهم حسب الدين[٢٦] .

والتصنيف الخامس كان مقاما على اساس القومية ، فقد صنفهم الى العربي والتركي والخراساني .

نجد في هذه التصانيف الاجتماعية لفئات المجتمع العربي انه قد اعطى صورة مفصلة للجماعات الاجتماعية المكونة للمجتمع العربي (حسب القيمة الاجتماعية العربية ـ الكرماء ـ البخلاء) الذي لم يستخدمه احد من علماء الاجتماع الكلاسيكيين او المعاصرين الذين استخدموا الدخل والثروة والملكية والدين والقومية والمكانة الاجتماعية والانتماء السياسي ، وهنا تبرز اهمية الجاحظ في رفد كتابات علم الاجتماع بعامل متغير يصلح ان يستخدم في تصنيف فئات المجتمع عن المجتمعات التقليدية والمحافظة والقبلية والريفية وحتى الحضرية في بعض المجالات .

تناول الجاحظ ايضا مفهوم السعادة في المجتمع العربي الذي وصفها بانها نسبية ، وميز بين سعادة اصحاب المال والثروة وسعادة اصحاب المراكز الاجتماعية العالية وسعادة اهل العلم والمعرفة والثقافة. فقد انتبه الفيلسوف الاجتماعي (الجاحظ) الى هذا المفهوم ؛ لما له من اهمية في مناشط وطموحات وتنافس وتعاون الافراد داخل المجتمع وربط السعادة باللذة الحسية ووصف جامعي المال والثروة بان سعادتهم مؤقتة ؛ لانها مرتبطة بأشباع حواسهم واذا ما اشبعت انتهت سعادتهم ؛ وانها تزول بزوال اموالهم وثروتهم ، فهي (السعادة) ليست ثابتة ومستديمة لهم ؛ وحتى اصحاب المراتب الاجتماعية العالية والحكام والزعماء ، فان سعادتهم تكون مؤقتة لارتباطها بمراكزهم العالية ، وبزوالها تزول سعادتهم ؛ وبعض الناس لديهم رغبة في تسيس وقيادة وحكم الاخرين والتسلط عليهم وهذا ما يجلب لهم السعادة واشباع رغباتهم .

اضافة الى ذلك فان هؤلاء تكون الاضواء الاجتماعية موجهة نحوهم ويقعون تحت مراقبة اعين الناس مما يجلب لهم الحسد والمضايقات النفسية والاجتماعية ؛ وتنافس الاخرين معهم ؛ وتنافسهم فيما بينهم من اجل جمع ثروة اكثر وتسلق مراكز اجتماعية اعلى . جميع هذه المنغصات تجلب لهم

(٢٦) الحيوان الجزء الاول ص ٢١٩ ـ ٢٢٠ ، حيث توجد فاصل حول هذا التقسيم .

المتاعب والقلق وعدم الراحة وبالتالي لا يكـــونون سعداء .

اما طالبوا المعرفة والعلم فيتمتعون بسعـــادة اكثر دواما واستقرارا لعدم ارتباطها بحواس الانسان بشكل مباشر ، فالمعرفة العلمية تزيد من اطـــلاع صاحبها على شؤون الحياة وحاجاتها وانماطهـــا السلبية والايجابية وتقلل من استجلاب البلاء والنفاق والاعتداءات والقلق وهذه تقرب صاحبها من السرور والفضيلة والسعادة ، تجد هنا ان الجاحظ ربـط السعادة بالمعرفة العلمية والتعاسة بالجهل والفقر المعرفي .

وفي ضوء ما تقدم ، نرى ان الجاحظ قدم لعلم الاجتماع ارهاصات والماحات اولية لموضوع السعادة التي يفتقر اليها علم الاجتماع وهذا ما ذكره لنـــا الاستاذ رايت ملز احد علماء الاجتماع المعاصرين(٢٧) اما ما قاله الجاحظ في السعادة فهو ما يلي « ولكنا اذا ميلنا بين الفضيلة التي مع السرور ، وبين لذة الطعام ، وما يحدث الشره له من الم السهر والالتهاب والقلق وشدة الكلب ، رايتا ان صاحبه مغضول غير فاضل ، هذا مع ما يستب به ، ومع حمله على القبيح وعلى ان نعمته متى زالت لم يكن احد اشقى منه . وشروط الاماني غير شروط جواز الافعال وامكـــان الامور ، وليس شيء الذ ولا اسر من عز الامر والنهي ، ومن الظفر بالاعداء ، ومن عقد المنن في اعناق الرجال ، والسرور بالرياسة وبثمر السيادة لان هذه الامـور هي نصيب الروح وحظ الذهن وقســم النفس . وكما ان المعرفة لها من عمل ولابد للعمل من ان يكون قولا او فعلا والقول لا يكون قولا الا وهناك مقول له ، والفعل لا يكون فعلا الا وهناك مفعول له ، وفي ذلك ما اخرج من الخمول وعرف به الفاعل . وان كانت معرفته ناقصة بقدر نقصانها يجمل مواضع اللذة(٢٨)

واخيرا ، لم يهمل الجاحظ حياة المـــراة ومساهمتها الاجتماعية في المجتمع العربي ، فقد دعى الى المساواة الاجتماعية بين الرجل والمراة حيث قال فليس ينبغي لنا ان نقصر في حقوق المراة ، وليس ينبغي لمن عظم حقوق الاباء ان يصغر حقوق الامهات وكذلك الاخوة والاخوات والبنون والبنات وانا وان كنت ارى ان حق هذا اعظم فان هذه ارحم(٢٩) .

(٢٧) التجريبية التجريدية ، رايت ملز ، مجلة الفكر العربي العدد السادس دسمبر ١٩٧٨ ـ ص ٨٧ .
(٢٨) الحيوان ، الجزء الثاني ص ٩٧ ـ ٩٨ .
(٢٩) الجاحظ ، طه الحاجري ، دار المعارف بمصر ١٩٦٩ ص ٤٤٠ .

وجماع القول ، فان الجاحظ اســـتخدم التحليل التشخيصي في دراسة المجتمع العربي وارفد كتابات ودراسات علم الاجتماع باربعة مواضيع لم يتطرق لها كتاب وعلماء الاجتماع القدامى والمحدثين ـ تتلخص فيما يلي ـ

١ ـ استخدم في تحليله عامل (الحسد) كمصدر للاصطراعات الاجتماعية لما لها من دور هام في صراع الجماعات الاجتماعية والقبائل والعشائر العربية ، بينما استخدم علماء الاجتماع المدينـــة والتحضر كما هو عند ابن خلدون ، ومصدر توزيع الموارد الاقتصادية غير العادل والمتكافيء بين الافراد كما هو عند كارل ماركس ، ومصدر تطمين واشباع الحاجات والمصالح الاجتماعية والذاتية والغرائز المدائية كما هو عند العالم الالماني القديم جورج سمل ، ومصدر السلطة كما هو عند العالم الالماني المحدث رالف ندورف ، ومصدر غياب الســـلطة الشرعية وسرعة الحراك الاجتماعي والحرمـــان والاحباطات الذاتية كما هو عند العالم الامريكـــي لويس كوسر(٣٠) .

وهذا يعني انه قدم مصدرا فكريا جديدا الى مصادر الاصطراعات الاجتماعية في علم الاجتماع . على انه يجب ان نذكر ان هذا المصدر لا يؤدي الى تغيير المجتمع وتبديله .

٢ ـ تطعيم تحليلـه الاجتمـاعي بعامل غير اجتماعي بعيش في المجتمع العربي واعتماد افراده عليه في معظم مناشطهم الاجتماعية وغير الاجتماعية ، واعجابهم بصدق سلوكه ، ومساعدته لهم في مواجهة البيئة الجغرافية ، الا وهو الحيوان . فنحن لم نجد مثل هذه الالتفاتة الدقيقة والعميقة في تحليل كتاب ومحللي علم الاجتماع . اللهم الا عند بعض علماء الانسان (الانثروبولوجي) عند دراستهم للمجتمعات البدائية وغير المتحضرة والتي كانت بسيطة وسطحية غير معمقة .

٣ ـ استند في تصنيف فئات المجتمع الى عامل رئيسي وحيوي في حياة المجتمعات القيميـــة (وهي قيمة الكرم والبخل) التي لعبت وما تزال تلعب دورا هاما في ابراز صفات المجتمع العربي بغض النظر عن ثراء او فقر الفرد العربي ، وهذا لم نجده عند المحللين الاجتماعيين المـرب او الاجـــانب في تصنيفهم لفئات المجتمع ، بل اكتفوا بالعوامـــل

(٣٠) نقد الفكر الاجتماعي المعاصر ممن خليل عمر مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء ١٩٧٨ ، ص ١٨ ـ ٣٠ .

الاقتصادية والسياسيةوالدينية ، وحتىاستخدامه لعامل المهنة في تصنيفه كان مختلفا من بقية المحللين حيث ركز على اصناف المهن الفكرية اكثر من الاقتصادية والادارية والسياسية وذلك لاهميتها في حياة المجتمع العربي آنذاك .

٤ ـ لم يكتف بتصوير وتحليل الحياة الاجتماعية للمجتمع العربي ، بل كان مقيما منصفا لها وناقدا لاذعا لشرورها ومساوئها وفئاته المشموذة والمتكسبة من النفاق الاجتماعيوجهالة العوامواستعلاء السادة واستغلال العارفين .

لذلك وصفنا تحليله بصفتين رئيسيتين هما الاصالة لانه كان اول كاتب عربي في زمانه يصف الحياة العربية بشكل علمي دقيق وبشكل ينسجم مع المنهجية العلمية في علم الاجتماع ، وتشخيصه الواضح للظواهر الاجتماعية وارجاعها الى معلوماتها الاجتماعية،وهذا ما قام به في دراسته للاصطراعات الاجتماعية حيث ارجعها الى عامل الحسد،وتصنيفه لفئات المجتمعباعتماده علىالقيم الاجتماعية العربية، اضافة الى ذلك فانه قدم الماحات اولية لمفهوم السعادة بالمعنى الاجتماعي الذي مازال علم الاجتماع يفتقر اليها ، وهذا ما اعترف به العالم الاجتماعي الامريكي رايت ملز .

اما الصفة الثانية ، فهي العمق في التحليل لانه استطاع التوغل الى صلب الحياة الاجتماعية العربية ودقائقها من خلال تفسيره وتوضيحه لاهمية الحيوان في حياة المجتمع العربي واعتمادهم عليه في جميع مناشطهم ومواقفهم الاجتماعية وغير الاجتماعية .

WWW.ATTAWEEL.COM